مجلة وادى النيل للدراسات والبحوث ـ العدد الأول ـ يناير 2014م

الصورة الجسدية والروحية لمفهوم الحرف عند صوفية الإسلام

د. محمود تركى عبد اللاه أحمد(*)

تمهيد:

أسس الصوفية على الحروف[1] علمًا متكاملاً[2]، وارتبط هذا العلم بعلوم أخرى مثل علم السيمياء، وحساب الجمل[3]، وغيرهما من العلوم. ومن هنا اعتقد بعض الصوفية في ارتباط الحرف والعدد بسر الحياة (الروح)، فعكفوا على اكتشاف ذلك الرابط، وذهب بعضهم إلى أن كلّ حرفٍ يقابله عددٌ محدد فتعاملوا بحساب عدد الحروف والأرقام فى "حساب الجُمّل" وربطها لمعرفة الطبائع البشرية حسب العدد المقابل، ومن هنا اكتسبت بعض الحروف مكانة خاصة، لتفردها بشيء لا يتوفر فى غيرها من الحروف. ومن هذا المنطلق اهتم الصوفية بالحروف خاصة "ذات الأسرار" منها، وربما اكتسبت هذه الحروف السّر من ذكرها فى القرآن الكريم أو لمقابلتها خصائص وأسرار كونية لدى العارفين.

فقسم أهل التصوف هذه الحروف إلى نورانية وظلمانية، حيث ضمت الحروف النورانية افتتاحيات أوائل السور التى تبدأ بالحروف (ألم، طسم، الر، حم، طه، يس، عسق، ن)، فى حين ضمت الحروف الظلمانية بقية الحروف. ولا يعنى ذلك أن الحروف الظلمانية لا تتميز بأسرار أو نواح روحية أخرى. كما قسموا طبيعة الحروف إلى جسد وروح- كما سنرى لاحقا- وحقيقة الأمر أن علم الحروف ليس قاصرًا على التصوف الإسلامى وحده، بل وجد له مثيلاً فى العلوم الباطنية القديمة التى أثرت فى التراث الإسلامى[4].

ومن أبرز الخصائص التى تميز علم الحروف عند الصوفية هو كونه علمًا أو شبه علم يساعد على تنمية قدرة رؤية الكون بكل أبعاده بشكل متجانس موحد، مما يجعل باستطاعة الإنسان قراءة ظواهره لفك رموز الرسالة الكونية (ب. لورى، 2006، 23).

المعنى الإصطلاحى لعلم الحروف عند الصوفية:

إذا كانت الصوفية قد تميزت بدقة تعريف وتفسير المصطلحات مما يجعلها تشعب فى التعبير عن أدق الخلجات النفسية والحالات الوجدانية، ووصف باطن النفس وتحليل أدق أجزائها وألطف أسرارها، وإذا كان المصطلح الواحد عند

(*) دكتوراه فى الفلسفة الإسلامية.

الصوفية قد أخذ معانى متعددة التوظيف والسياق فإن هذه الأمور نفسها انطبقت على المفهوم الإصطلاحى لـ "الحروف" عند صوفية الإسلام. ولعل الحسين بن منصور الحلاج (ت: 309هـ/922م) هو أول صوفى يربط بين تصوفه وعلم الحروف حين قرر: أن علم القرآن فى الأحرف التى فى أوائل السور وعلم الأحرف فى لام ألف، وعلم لأم ألف فى الألف، وعلم الألف فى النقطة وعلم النقطة فى المرعفة الأصلية فى الأزل (ح. الحلاج، 1998، 103)، ليأتى بعده الإمام عبد الكريم القشيري (ت: 465هـ/1074م) ليذكر فى رسالته "الرسالة القشيرية": أن هذا العلم تلقاه آدم- عليه السلام- فيقول: إن الله تعالى لما خلق الأحرف جلعها سرًا له، فلما خلق آدم عليه السلام بث فيه ذلك السر.. (ع. القشيري، ب. ت،18). والجدير بالذكر أن الإمام أبو حامد الغزالى "حجة الإسلام" (ت: 505هـ/1111م) قد ألف هو الآخر رسائل فى علم الحروف أكثرها فُقد[5]، إلى أن جاء بن عربى (ت: 638هـ/1240م) فأفرد مساحات غير قليلة فى كتاباته الصوفية عن علم الحروف، ومن بينها ما نجده فى كتابه الفتوحات المكية حين قال: اعلم أيدك الله أن العلم العيسوى هو علم الحروف ولهذا أعطى النفخ وهو الهواء الخارج من تجويف القلب الذى هو روح الحياة فإذا انقطع الهواء فى طريق خروجه إلى فم الجسد سمى مواضع انقطاعه حروفًا فظهرت أعيان الحروف (م. عربى، الفتوحات المكية، ب. ت، ص224)..

ولعل أدق تعريف إصطلاحى لعلم الحروف عند الصوفية هو ما قاله ابن عربى: الحرف هو اللغة، وهو ما يخاطبك الحق به من العبادات. (م. عربى، معجم اصطلاحات، 1990، 68.)

ويعرف الجرجانى الحروف عند الصوفية على أنها: هى الحقائق البسيطة من الأعيان وعندهم الحروف العاليات، وهى الشئون الذاتية الكائنة فى غيب الغيوب كالشجرة فى النواه.. (ع. الجرجانى، 1991، 99).. فالحرف يحمل فى داخله أسرار الوجود وتكمن فيه جميع الحقائق الكونية والإلهية، المشاهدة أو الغائبة عن الأعيان فى المكان والزمان. ويورد عبد الرزاق الكاشانى عدة صور لمعنى الحروف عند الصوفية وأنواعها، فيتكلم عن الحرف الوحدانى، والحرف الوجودى، والحروف العاليات (ع. الكاشانى، 1995، جـ1، 401).

أما عبد الكريم الجيلى (ت: 832هـ/1428م) فيرى الحروف على ثمانية أطوار هى: حروف عاليات: وهى ذوات معلومات العلم الإلهى المعبر عنها بالأعيان الثابت فى العلم الإلهى. وحروف روحية: وهى الأرواح النورانية التى أظهر الله بها هذا الوجود. والحروف الصورية: وهى جوانح هذا العالم الكلى وجوارح الإنسان. والحروف المعنوية: وهى حركات الأشياء وسكناتها، ينشأ منها حروف يتركب من تلك الحروف كلمات مناسبة لحال المتحرك، كالإنسان فى حال قيامه، يتركب منه صورة "ألف" وهى فى حال منامه صورة "الباء"، إلى غير ذلك.

والحروف الحسية: وهى ما تشاهد رقمًا وكتابة. والحروف اللفظية: وهى ما تشكل فى الهواء من فرع الريح الخارج من الحلق على مخارج الحروف. والحروف الخيالية: وهى صور تلك الحروف فى نفس الإنسان عند تعقله لها.. (عبد. الجيلى، 1992، 81-82.)، ولا تهتم الصوفية بكل هذه الأطوار للحروف، وإنما يعنيهم من هذه الحروف الطور الذى يدل على حقيقة الكون والحياة والمعرفة القرآنية، وهذه المعارف كما يرى الصوفية لا تكون متاحة لكل البشر، بل هى قاصرة على خاصة الخاصة من أهل التصوف، لأن بمعرفتها تنفتح أسرار الكون والطبيعة، وهذا ما أكد عليه الجيلى حين قال: من تجلى الله عليه فى المنظر الحرفى، أطلع على حقيقة كينونته فى العلم الإلهى بأى صفة وعلى أي حال، وفى أي مرتبة، أقامه الله تعالى فى علمه. (السابق، 91) وهناك عشرات التعريفات الأخرى لعلم الحروف عند الصوفية، ولكن أغلبها لا يبتعد كثيرًا عن التعريفات السابقة.

والجدير بالذكر أننا نجد فى مؤلفات الصوفية المرتبطة بـ "الحروف" توازنًا بين علم النحو والمعطيات القرآنية والنظام الكونى، وهى التى تناولها ابن عربى بتوسع فى كتابه "الفتوحات المكية"، بالإضافة إلى بعض النصوص ذات المحتوى الصوفى المحض مثل: "كتاب الطواسين" للحلاج، وكتاب "ختم الأولياء" للحكيم الترمذى (ت:320هـ/932م)، وكتاب "موقف المواقف" للنفرى (ت: 354هـ/965م)، وهى نصوص صوفية تهدف إلى دراسة اللغة باعتبارها الطريق لمعرفة الله وكشف أسراره أيضا. ولعل من ضمن الكتب التى أبرزت التوازن بين علم الحروف من ناحية، وعلم النحو من ناحية أخرى كتاب: "نحو القلوب" للإمام القشيري، هذا بالإضافة إلى طائفة تخصصت فى دراسة الحروف، وأطلق عليهم أسم "**الحروفية**".

فرقة الحروفية:

نسبت فرقة "الحروفية" إلى مؤسسها عبد الرحمن الحسينى الذى ولد فى مدينة ستراباد (240هـ/ 1339م) من عائلة صوفية، وسيمت هذه الفرقة باسم "الحروفية" لاعتنائها الزائد بالحروف وأسرارها على طريقة استناطقها لكشف أسرار الطبيعة. (م. الرؤوف، 1413هـ، 361)

وتقوم دعوى الحروفيين على أن الأصل فى العبادة هو اللفظ، وبه يمكن للإنسان أن يتوصل بالله والمعرفة هى أيضا معرفة بالألفاظ، لأنها مظهر للموجودات، واللفظ مقدم على المعنى، ولا يمكن تصور معنى دون لفظ. فهم يرون أن التعبير عن المعانى والحروف وأصواتها يكمل فى الحروف العربية وعددها (28) حرفًا، والحروف الفارسية وعددها (32) حرفًا، ويرى الحرفيون أن التعبير عن المعانى بالحروف وأصواتها ينصف فى طريقين وقالبين أولهما: القالب العربى الذى نزل به كلام الله، ويتضمن ثمانى وعشرين حرفًا، والثانى: القالب الفارسى، الذى يتضمن اثنين وثلاثين حرفًا، ويجمع الحروف كلها منذ أيام

آدم. (م. الشيبي، 1982، جـ2، 212). وقد قامت مبادى هذه الفرقة على قول الصحابى الجليل على بن أبى طالب: جميع أسرار الله فى الكتب السماوية، وجميع ما فى الكتب السماوية فى القرآن العظيم، وجميع ما فى القرآن العظيم فى بسم الله، وجميع ما فى (باء) بسم الله فى (النقطة) التى تحت (الباء) وأنا النقطة تحت الباء (السابق، 195)

وقد ربطت الحروفية أيضا بين الحروف من ناحية والأرقام من ناحية أخرى[6] فى تطبيق العددين (28، 32)- وهى أعداد الحروف العربية والفارسية- على مظاهر العالم ظاهرًا وباطنًا إثباتا لتأصيلهم للحروف، وتركيبًا لجزئيات أفكارهم، فبدؤوا بآدم- عليه السلام- وخلق آدم والعالم فى ستة أيام فقالو: إن روحه خلقت فى هذه المدة قبل جسده، وأن الأيام الستة تعنى العناصر الأربعة مضروبة فى 28 لتكون عدد الحروف خاصة بكل عنصر وتعبر عنها مضافا إليها عدد الحروف الفارسية التى هى المفسرة للمعرفة الإلهية، خلقت فى هذه المدة قبل جسده (السابق، 187-188) ومع الأسف الشديد جاء فقدان مؤلفات هذه الفرقة- التى لم يكتب لها الاستمرار- حائلاً دون تحديد هل كانت لها حقًا فلسفة حقيقية قائمة على مفهوم الحرف؟ أم أنها قدمت تفسيرات سطحية قائمة على رصد العلاقة بين الحروف والكلمات؟ وفقدان مؤلفات وكتابات هذه الفرقة يقف عائقًا أمام تقديم إجابة على التساؤلات السابقة.

الصور الجسدية والروحية لمفهوم الحرف:

إن الوعي الدقيق بالحرف يرتكز حول كونه وعياله منطقه المتفرد في تأسيس ذاته وذات العالم، وموضَعتها في فضاءات روحانية وجمالية تؤسس عالم المعنى وحضارتَه، بمعنى أن الحرف له إبيستيمولوجيته الخاصة المنبثقة عن ماهيته الوجودية. فهو موجود على الإطلاق، لا ابتداء لوجوده، ولهذه العلة كان أول مقام من المقامات التي انبنى عليها علم الحرف (أ. البوينى، 2004، 22)، غير أن وجوده هذا يبقى وجودًا إشكاليا ملتبسا، يُراوح بين والرمز والصورة، والجسد والروح، ويُمارس لعبة باطنية ليس من السهل إدراك مراميها، ولا الوقوفُ على تخوم النوع المعرفي الذي يُؤسسه منطقه كدالٍّ ومدلول في نفس الوقت، أو يؤشر عليه. لكننا نستطيع الاقترابَ منه والحديثَ عنه كشبكة رموز تكمن وراءها سلاسلُ من المعاني تُلقِّحنا ضد الإدهاش الذي يزرعه فينا لأول وهلة على مستوى العين والذاكرة والوجدان.

فالله قد جعل النطقَ في الإنسان على أتم الوجود، بحيث جعل له ثمانية وعشرين مقطعا للنفس، يُظهر في كل مقطع حرفا مُعينا مختلفا عن الآخر. فالعين واحدة من ناحية النفَس، وكثيرة من ناحية المقاطع (ع. محفوظ، 2003، 119). إذن؛ فإن الحرف مشاهد وأشكال ترينا الكثرة في عين الوحدة، والوحدة في

عين الكثرة، وتُبين لنا ظل العالم والإنسان وصورتهما باعتبارهما توأمين وجوديين يتبادلان الاعتراف.

وإذا كان الحرف يعرف صوفيا بأنه "هو ما يخاطبك به الحق من العبارات"- كما أشرنا سابقًا- وكل حرف مودعة فيه حكم وأسرارٌ وخواص، وله طبائع ومراتب. ولهذا فإن العلم به مقدم على العلم بالأسماء تقدم المفرد على المركب، إذ لا يعرف ما ينتجه المركب إلا بعد معرفة نتيجة المفردات التي تركبت عنه (م. عربى، كتاب الميم 2002، 44).

وقد ذهب الصوفية إلى أن للحرف عدة صور جسدية خرج منها أشارات الأمر الإلهى، ومن بين هذه الصور الجسدية للحرف: صورة العلم، وصورة العمل، وصورة الحال. وتفسير هذه الصور الجسدية يأتى كالتالى: فالعلم من العدم إلى الوجود والشهود، والعمل من الشهادة إلى الغيب، والحالُ من العلم والعمل إلى الإضافة والنسبة التي هي في آخر الظلمة، والعبدُ يخرج من العدم إلى الوجود بالعلم، ويدخل بالعمل في الغيب، ويدخل في الظلمة ويخرج منها بالحال. فمن كمُل في العلم والعمل والحال... قطع الله عنه غصنَ العلم، وغصن العمل، وغصن الحال... فيخبر عن الله بوجود أشياء كانت معلوم الله قبل خلقها (م. عربى، رسالة فى شرح مبتدأ الطوفان، 1998، 231)، لأنه أدرك سر هذه الصور، وتغلغل في سر حروفها، حتى صارت في وجدانه صور يقينية، تثمر بالشفوف، وتنخرق إلى الكشوف التي تطبعها لام السَّلام وهو لام اللقاء في عالم الالتقاء (م. عربى، رسالة شرح رتبة الشيوخ، 1998، 152) بالحضرة المطلقة الأمر في جمال "كن"، حيث تتجلى فضاءات الجسد الروحي وتتعدد مرائيه. فالحرف لا يتحقق له صريح الوجود إلا في نقطة الوجود؛ التي هي التجسيد الأعلى لفضاءاته، والإطار الجامع لمرائيه، حيث تبرز صوره، مراتبه، ووجوهه، وتحولاته، وخصائصه.

1- الحرف صورة جسدية:

ونقطه في الوجود هي النفس الرحماني، فمنه انبثق، وبعد الانبثاق توجه إليه التجلي الأسمائي الذي خلقت منه كلمات الله التي هي صورٌ وجودية روحية؛ منها صورة "آدم". فالله تعالى لما خلقه على صورته علمنا أن الصورة هنا هي صورة اسمه "الله" المركبة من الحروف، ف "آدم" ونسله كله على صورة اسم "الله" تعالى. والقراءة السيميولوجية لجسده تكشف عن ذلك، فالحرف جسد، والجسد حرف، وكلاهما له صبغة قدسية، ومن هنا كان تكريم الإنسان، و كانت هذه الصورة هي الاعتقادَ في الله الذي يخلقه الإنسان في نفسه من نظره وتوهُّمه، وكانت كذلك النبوة الخاتمة: إذ كما خلق الله "آدم" على صورته بدءا، خلقه أيضا على صور "محمد" ختاما.

إنه سر الحرف الذي خلق به الله الكون والكوائن، وأودعه في طبع الإنسان الذي أوجده على صورته بكلمة "كن". وحظ المخلوق من كلمة "كن" ما علم من حروف الهجاء، فالله جعل الإنسان مجموع رقائق العالم كله، فمن الإنسان، إلى كل شيء في العالم، رقيقةٌ واحدة ممتدة. ومن تلك الرقيقة يكون ذلك الشيء في الإنسان الذي أودعه الله، وأمنه عليه، وبتلك الرقيقة يحرك الإنسان العارف كل شيء إلى ما يريده، فما من شيء إلا وله أثرٌ في الإنسان، وللإنسان أثر فيه، إذ الكون كله شجرة حروف؛ أصل نورها في جنة "كُنْ" (ع. محفوظ، 2003، 87).

فعالم الحرف هو عالم أمة أفصحُ لسانا، وأوضح بيانًا، هي على أقسام كالعالم المعروف: منها عالم الجبروت، والعالم الأعلى، والعالم الوسط، والعالم الأسفل وهو عالم الملك والشهادة (م. عربي، كتاب الألف، 2002، 39). وكل عالم من هذه العوالم هن خلقٌ، والخلق كتابةٌ، والكتابة غرسٌ، والغرسُ نفسٌ، والنفسُ علمٌ والعلم معلومٌ.

وأول العلوم علم الحرف، فهو الذي تقوم على أساسه كل العلوم، إذ لا يمكن لأحد مثلا أن يعلم الموسيقى إلا بعد عِلم العروض والتصريف، فعلم النغم والإيقاع، وعلم الشعر وصنعتهِ، هما المعرفة بالأوزان الهوائية، وكلاهما قائم على علم الحرف. إنه علم يعرف الناس ببواطن الوجود، ويقيهم من تصحيفها ويُطلعهم على أصوات الكون ولغاته، وعلى لغات الله فيه. ولذا اشتد ولهُ الحروفيين به، وبالفضاءات التي يتمرآى فيها الحرف، وبخاصة الشعر. فالشعر هو الأصل في ترتيب الحروف التي هي أصل الكلام، لأن الكلام الحق ينبغي أن يكون مساويا لكل ما في العالم من إنسان ونبات وحيوان ومُكونات مادية. فالعالم إنسانٌ، الإنسان له خاصية الأفعال وأكبرها، بل إنه؛ في عمقه العميق؛ ما هو إلا حرفٌ وجودي أبرزه نفَس الرحمان قبل أي تشكل للوجود. إن سر الوجود تحويه الحروف، ولكنه لا يظهر إلا بمعرفة باطنها.

فالحرف نفس رحماني تلقاه النفس الإنساني فصار في طبعه، ومن ثم كان الكلام ونظم الحروف له طبعا، كما كل موجود له طبيعةٌ والكلام وجود. ففعل الخلق في الكون قائم على حركة وسكون، والكلام فعلٌ أي تأليف عددي من حركة وسكون، ولا كلام إلا بتركيب الحروف، ولأجل هذا كان تصريف الحروف في الكلام شبيها بتصريف الطبائع.

2- جسد الحرف نموذج لجسد العالم:

فبالحرف نستكنه أسرار العالم، نستحضر مباهجه، وندمن حبه، فالله ما أوجد العالم إلا عن حب. ولذلك كان الحب انجذابا إلهي، به يعرف المحب المراتب، كأن يعرف أن المرأة هي من الرجل بمرتبة الطبيعة من الأمر الإلهي، وأمر بلا طبيعة لا يكون، وطبيعة بلا أمر لا تكون. فإذا عرف مرتبة الطبيعة عرف بالضرورة

مرتبة المرأة، وإذا عرف هذا عرف مراتب الحروف، وفعاليتها في مراتب الوجود. فالله قد أنزل الأمر على حروفا عديدة تظهر كلها في حرف واحد، وهذا الحرف الواحد هو إشارة إلى جوهر النبوة. فالحروفُ جميعها دائرته، تتحرك فيها وفق جدلية التجلي والخفاء، ووفق حركة الإظهار والإدراج. فهناك حروف مظهرة وأخرى مُدرجة في هذه الدائرة.

وتنقسم الحروف إلى: **الحروف المظهرة**[7]، **الحروف المدرجة** مندرجة في العشرين السابقة، وكلها تمثل دائرة النبوة؛ التي لا يبصر أحد حقيقتها إلا بعد الاطلاع عليها، لأنها هي التي أُنزل عليها الأمر الدائر في دائرة النبوة بحقيقة الواحد التي تتضمن واحدا وسبعين ألف دائرة لله تعالى (م. عربى، رسالة المقدار، 250،1998). ولا يستشف أسرار هذه المنظومة الإلهية الكونية في بعديها: الروحي والجسدى، إلا الحرف باعتباره عينا وجودية منفتحة على المرئي واللامرئي، على المفكَّر فيه، على العقل والوجدان، وعلى ما وراءهما، وذلك بميكانيزماته التي أودعها الله فيه، سواء في مراتبه ووجوهه، أو في تحولاته وأنواعه وخاصياته إفرادا وتركيبا.

3ـ أقسام جسد الحرف ومراتبها:

يمكن تقسيم جسد الحرف ومراتبه عند الصوفية إلى ثلاثة أقسام أساسية: لفظية ورقمية وفكرية (خيالية).

اللفظية: يوجد منها عالم الأرواح، ولا ظهور لها في عالم الحس. فالله تعالى يخلق من كل حرف تُلفِّظَ به ملكا يسبح الله تعالى، فإن كان الحرف من الخير خُلِقَ منه ملك رحمة، وإن كان من الشر خلق منه ملك عذاب. ومن هنا كانت مسؤولية اللسان، فلينظر الإنسان بأي حرف ينطق، وأي غاية يريد به، فالحرف أمانة ربانية في الطبع الإنساني وفي نفسه لا يبعث بها إلا من ليس له لسانُ صدق في العالمين.

الرقمية: يوجد منها عالم الحسِّ أي عالم الشهادة الذي تدركه العقول والأبصار وبقية الحواس التي خصَّ بها الله تعالى مخلوقاته. وهذه الحروف الرقمية على رتبتين؛ **رتبة الوضع المفرد**: وهي المعروفة بالرتبة الألفبائية، أي ا، ب،ت، إلى ي. **رتبة الوضع المزدوج**: وهي الرتبة المعروفة بالأبجدية، أي أبجد، هوز، حطي، كلمن، سعفص، قرشت، ثخذ، ضظغ. ومن الوضع المفرد الحرفُ المركب (لام ألف)، فيبقى 28 حرفا رقميا عدد المنازل.

الفكرية: يوجد منها عالمُ الخيال وكل ما هو في حكم التخيل، والتخيل تخيلان؛ **تخيل العامة**: ولا يوجد منه شيء سوى التمني. **تخيل العارفين**: وهو الذي يوجدُ في الحين، لأن لهم تصرفا بالحروف، بجميع أنواعها ومراتبها، زيادة على تصرف رابع يُسمونه التصرف بالجانب الأحمى ولا يعلمه إلا الرسلُ (ع. عربى، 1963، جـ1، 246).

وكل قسم من هذه الأقسام الثلاثة له مراتب كثيرة، ولكل وجهٍ خصوصُ أمرٍ لا يكون إلا له من حيث ذلك الوجه. فالحروف تبدو متميزة من ناحية الذوات في حاسة السمع عندما تخرج من المخارج، ولكنها تشبه بعضها من وجوه كثيرة، فتارة تُشبهه من جهة الصورة كالباء والياء والثاء إذا عريت عن دليلها الذي هو التنقيط، تارة تشبهه من جهة أعداد بسائطه كالعين والغين والسين والشين(م. عربى، كتاب الميم، 1998، 56). وهذه الوجوه هي بمثابة شبكة رمزية تستقطب مختلف الدلالات الوجودية والكونية، وتحولها جهة دلالة كلانية تُظهر السبعين ألفا في واحد (م. عربى، كتاب الميم، 1998، 251)، وذلك بسبب ما لها من خاصيات ذاتية في حالتى الإفراد والتركيب. فالحرف إذا ركب مع غيره أعطي التركيب خاصية لا توجد في كل مفرد بعينه، وهي أيضا خاصية لمفرد. ولا يبرز هذه الخاصيات إلا النقطة في مدارها مع الحرف وجودا وعدما أثناء الإفراد والتركيب، وبخاصة تلك التي في النون. فمواد الروح والنفس والفعل مستودعة كلها في النون باعتبارها كلية الإنسان الظاهرة، وشطرَ كونه المنظورَ، ولهذا ظهرت النقطة وعلت، لأنها الوجود التي تُطل في عينها كعين على معبودها(ع. محفوظ، 2003، 108)، فتمتليء بالأسرار والرقائق التي تفيض بها على الحروف المكوَّنة لها.

4ـ الأسرار الروحية لجسد الحرف ورقائقها:

أسراره: فأرواح الحروف دائمة الفيض والهبوط أبدَ الآباد، من العالم الأعلى على أشكال الحروف الموجودة في العالم الأدنى. وهذه الأرواح أبدية الفيض، دائمة الهبوط على الدوام، قائمة مقامها الذي خلقت فيه، لزمت ما لزمته الأفلاك ملازمةً لفيض الأرواح على أشكالها (أ. البوينى، 2004، 22)، ولهذا كانت للحروف طبائع ومنازل وأسرار.

طبائعه: وهذا راجع على أن جهات فيضان الأرواح على الحروف اختلفت، واعتدلت إلى أربع جهات، اختصت كل جهة بقسم دون الآخر. فقسمت أربعة أقسام؛ كل قسم سبعة أحرف له طبعٌ وروح[8] كما يرى بعض الصوفية. وهذه الطبائع الممثلة في أقسام الحروف الأربعة هي الناسجة للكون وللكائن بمختلف تجلياته وفق نِسَبٍ تختلف من نوع إلى نوع، ومن جنس إلى جنس، ومن فرد إلى آخر. فالحروف كما الأفراد في الطبائع، ولذلك قيل إن الإنسان حرف ومنزلٌ.

عدد الحروف عدد المنازل: فعدد الحروف الهجائية ثمانية وعشرون حرفا، وكذلك عدد المنازل في الأبراج ثمانية وعشرون منزلا، ومنزلة الإنسان في مراتب الوجود هي الثامنة والعشرون، أي أنه مقابلٌ ومواز لآخر حروف الهجاء. وقد فطن إلى هذا السر عدد من العارفين الصوفيين، وعدد من الحروفيين المهتمين بالروحانيات، الفلكيات، والرمليات، والخطيات على مستوى التشكيل[9].

ولأجل هذا قسمت الحروف إلى **نورانية** و**ظلمانية**، و**سعيدة** و**نحسة**، و**ممتزجة**[10].

مراتب أسراره: إن من مراتب أسرار الحرف أن يكون أول الحرف كآخره، بحيث يقرأ من اليمين ومن اليسار دون تغيير أو تغير في بنيته الصوتية، كما هو الأمر في الميم والواو والنون. فالواو هو أول عدد تام، فإن له من العدد ستة، وأجزاؤه مثله وهي النصف وهو ثلاثة، والثلث وهو اثنان، والسدسُ وهو واحد، فإذا جمعت هذه كان مثل الكل. فالواو عند أصحاب الحروف يُعطي ما تعطيه الستة من العدديين كالفيثاغوريين القائلين بقيام حركة الكون على الأرقام، فحرف الواو مولَّدٌ عن حرفين شريفين هما الباء والجيم، والباء لها رتبة العقل الأولي لأنه الموجود الثاني أي في الرتبة الثالثة من الوجود، والجيم أول مقامات الفردانية، فإذا ضربت الباء في الجيم كان الخارجَ الواوُ. فالواو والهاء عين (الهو) التي يقال لها الهوية. إن صورة نطق الواو هكذا: (واو) تُعطيك ذلك، فالواو الأولي واو الهوية، والهاء مُدرجة فيها اندراج الخمسة في الستة فأغنت عنها، والواو الأخرى هي واو الكون الذي فاض بأمر (الهُو). وهكذا، فكل حرف له مراتب أسراره إن على مستوى البنية الصوتية، أو العددية، أو التراتبية الألفبائية، أو الطبائعية، وإن على مستوى الحركة الفلكية في الوجود. فالحرف رمز لفاعلية إلهية.

قيام الأسماء الإلهية على الحرف: فأسماء الله تعالى قائمة كلها على الحرف، وكلها قديمة أزلية، تكلم بها جلَّ جلاه بقوله: آلم، حم، عسق، كهيعص، طس، ق، ن، طه، المر، الر. فه قديمة بقدم الذات، وليس قِدمها ما يوجد في ألفاظنا ويُكتب ببياناتنا، ويتصور في خيالنا. وإنما الحروف القدسية هي ما كانت هذه الأمور دالة عليها فقط، فالحروف اللفظية، والبيانية (= الرقمية)، والفكرية (=الخيالية) هي دالة على تلك الحروف القدسية التي بها الكلام الحق، إذ لولا صُورة الحروف القدسية لما عُرفت صورة الكلام، ولما تميز بعضه من بعض، ولما أُدركت معانيه. فعن الحروف القدسية وُجدت الأسماء الإلهية كلها، وعنها برز الأمر الإلهي بقوله (كن).

فالكلام الإلهي الأزلي هو بحروف قدسية منزهة عن الآلات التي يقع النطق بها، فالحروف واقعة في كلام الله، ولا اعتبار لمن قال إن الكلام الأزلي من غير حرف ولا صوت، لأنه أراد بذلك طرد القائلين بنفي الكلام الأزلي البارز من الذات المقدسة عن قواعدهم؟ (ع. العربى، 1963، جـ2، 242) والله تعالى هو المتكلم الحي القيوم، له القيومية على الكون، وهذه القيومية يرمز إليها الألف الذي هو قيوم الحروف.

وقبل الدخول فى **الألف قيوم الحروف**، نطرح السؤال التالى: هل الألف حرف؟ إن ابن عربي يرى أنه "ليس من الحروف عند من شم رائحة الحقائق، فقد سمَّته العامة حرفا على سبيل التجوز في العبارة" (م. عربى، الفتوحات المكية، د.ت،

جـ1، 65) لا غير، فهو كالواحد الذي ليس بعدد رغم أنه هو أصل الأعداد، يستصحبها في مراتب الظهور، ولكنه ليس منها، فأول الأعداد إنما هو اثنان (السابق، 126). ويؤسس على هذا أن الأحدية لها الغنى على الإطلاق، وأن الواحد لا يناهض الأحدية (م. عربى، كتاب الألف، 2002، 42)، محذرا في هذا الموضع من الاتحاد لكونه لا يصح، فالذاتان لا تكونان واحدة، وإنما هما واحدان، فهو الواحد في مرتبتين، وضرب الواحد في الواحد لا يُضعّف، وإنما يتولد منهما كثرة، لأنها ما هو. وعليه فإن ضرب الشيء في نفسه لا يُظهر سوى نفسه، فكل مضروب في نفسه هو هو (السابق، 56).

ولهذا كان الألف ساريا في مخارج الحروف كلها سريان الواحد في مراتب الأعداد كلها، وسريان الأحدية في الوجود "فهو قيوم الحروف، وله التنزيل بالقبْلية، وله الاتصال بالبَعدية، فكل شيء يتعلق به، ولا يتعلق هو بشيء، ولا يتعلق الواحد بها، فيُظهرها ولا تُظهره" (السابق، 84). إن مقامه مقامُ الجمع، وله من الأسماء اسم الله، وله من الصفات القيومية، وله المراتب كلها، وله مجموع الحروف ومراتبها. فهو كالرقم واحد لا يتقيد بمرتبة دون غيرها، يُخفي اسمه في جميع المراتب فيكون الاسم هناك للباء والجيم والحاء والراء وجميع الحروف، والمعنى للألف.

إن الألف تُعطي الذات، كما تعطي الباء الصفات. فكما سرى اسم الله في الأسماء كلها على ألفاظها: باء، دال، كاف، واو، ياء. وذلك لأن الألف لما صحبت اللامَ في كلمة (لا) صحِب كلَّ واحد منهما ميلٌ، والميل هو الحركة العِشقية، واللام هي الأعشقُ، وصدق العشق يورث الوصال إلى المعشوق، وهكذا كان عشق اللام للألف. (م. عربى، الفتوحات المكية، د.ت، جـ1، 65).

ظهور الوجود بالباء: وإذا كانت الألف تُعطي الذات فإن الباء تُعطي الصفات، لأنها آية الحق النازلة من دائرة الأمر، مقامُها كانت مرتبتها الثانية من الحروف، لكونها تتميز من الألف بأحقية الإيجاد لسبب النقطة التي تحتها وهي الموجودات. فالوجود ظهر بالباء، وبالنقطة تميز العابد من المعبود. وقد سئل الشبلي: أأنت الشبلي؟ فقال: أنا النقطة التي تحت الباء، كان الشيخ أبو مدين يقول: ما رأيت شيئا إلا ورأيت الباء عليه مكتوبة. فالباء تُصاحب الموجودات في حضرة الحق في الوجود: (بي)، إذ بها قام كل شيء وظهر. ووقع الفرق بينها وبين الألف الواصلة في كون هذه تعطي الذات وهي تعطي الصفات. وكما أن عين الأعيان هو الإنسان الكامل لأنه نقطة الباء ومحلُّ الفيض وجامعُ الفضائل الإنسانية الربانية، كذلك نقطة الباء في البسملة. فالفاتحة- كما علمنا شيوخنا في القرآن- كامنة في البسملة، والبسملة في الباء، والباء في النقطة مُنْدَرجة ومندَرجةٌ، فهي أمُّ الكتاب، وجميع الكتب الكامنة فيها (ع. محفوظ، 2003، 108). فالإنسان هو مجموعة حروف وجودية، جمعها الله فيه ليكون عينَ الوجود، ومن بينها

الألفات والباءات والتاءات. فالألفات: اسمع، وأرى، وأعلم. والباءات: بي، وبك، وبنا. والتاءات: نفختُ، وسويتُ، وخلقتُ. فصار بمجموع حقائق الألفات والباءات والتاءات معنى تاب عليه، أي آدم رمز البشر. (ابن عربى، رسالة بحر الشكر 1998، 206) ولهذه الحروف رمزية، فالألف مُحتو على عجائب الملكوت، فهو يرمز معرفيا للذات الإلهية المنزهة عن الحركة والسكون، وذلك لأن الله تعالى لما خلق اللوح والقلم، قال للقلم: اكتب، فقال: ما أكتب؟ فنظر إليه بعين الهيبة، فقطرت من رأسه قطرة، فنظر إليها بعين الكبرياء، فماعت، فصارت همزة، فنظر إليها بعين العظمة، فامتدت فصارت ألفا، فقال الله عز وجل: لأجعلن هذا الحرف مبتدأ اسمي الأعظم. ولم تكن نقطة من القلم إلا بعد أن تجلى الله عليه بعين الهيبة، فنظرُ الله إلى تلك النقطة بعين الكبرياء جعلها تتغشَّى من النور الإلهي والجلال الذاتي، فهي لم تظهر إلا بعد تجلي الهيبة وذلك لأجل تزكية الألف، وتفخيم قدره، وتكميل سره (أ. البوينى، 2004، 22). والواو ترمز معرفيا إلى الروح الجبريلي الذي حمل الوحي إلى الأنبياء والرسل، أما الياء فإنها ترمز معرفيا إلى الرسول البشري الذي تلقى الرسالة في عالم التركيب السفلي، فهي الروحُ وهي الذات، وهي التي تنسُبُ كل شيء إلى النفس: بيتي، كتابي، روحي...الخ (ع. محفوظ، 2003، 109) إن رمز الحرف يدخل في رمز الاسم والذات، والوجود والمعنى، لننظر إلى أبيات ابن عربى حين قال:

إِنَّ ٱلْوُجُودَ لَحَرْفٌ أَنْتَ مَعْنَاهُ وَلَيْسَ لِي أَمَلٌ فِي ٱلْكَوْنِ إِلاّهُ
ٱلْحَرْفُ مَعْنًى، ومَعْنَى ٱلْحَرْفِ سَاكِنُهُ وَمَا تُشَاهِدُ عَيْنٌ غَيْرَ مَعْنَاهُ(11)

ـ روح الحرف وسر نشأة الوجود ابن عربى نموذجًا:

وللاقتراب من هذه النشأة نستعير من ابن عربي ثلاث آليات؛ هي: آلية التجلي الأسمائي، وآلية تجلي الحروف في النفس الرحماني، وآلية تلقيح الحروف.

ـ آلية التجلي الأسمائي: معناها أن السماء الإلهية هي الوسيط الفاصل بين الذات الإلهية وبين العالم، ولذلك لم يكن بنية خطِّية نازلة من الواحد الأحد، وإنما بنية دائرية، لها مركز ومحيط، تمثل الموجودات محيطها، بينما يمثل الله مركزها. فمن مركز الدائرة (الله) تمتد خطوط لكل نقط المحيط (العالم)، وهي الأسماء الإلهية التي لا حصر لها، حيث تصدُر الكثرة عن الواحد، وتكون التوجهات الإلهية حاضرة في العالم، ومن ثمة تكون بنية العالم بنيةً روحية في حقيقتها وجوهرها (ن. أبو زيد، 2006، 205)، الأمر الذي يُسقط مفهوم الزمن الخطي لصالح الزمن الإلهي أو الكوني.

ـ آلية تجلي الحروف في النفس الرحماني: معناها أن الوجود قد نشأ حروفا في النفس الرحماني، فالذات الإلهية لما أرادت أن ترى نفسها في غير ذاتها، ولأن

تُعرف خارج إطار ذاتيتها تنفست حروفا، ووفقا لما في الحديث القدسي "كنت كنزا مخفيا، فأحببت أن أعرف، فخلقتُ الخلق، فبي عرفوني"، والحبُّ ما هو إلا تنفيس وإخراجٌ لما في الصدر عن طريق التنفس العميق.

فالذات الإلهية تنفست، وعن هذا التنفس تكونت حروف الوجود حرفا حرفا أو مرتبة مرتبة، حتى استوت مراتب الوجود الأساسية وانتظمت كما تنتظم حروف اللغة في النفس الإنساني. ونحن نعلم أن الحروف إذا استوت أمكن تكوين الكلمة، وكذلك مراتب الوجود الأساسية إذا استوت أمكن ظهور الموجودات، أليست الموجودات في النهاية هي كلمات الله؟

ـ **آلية تلقيح الحروف**: معناها أن التوالد يتم عن طريق تلقيح الحروف بين العقل الأول (القلم) وبين النفس الكلية (اللوح المحفوظ)، حيث انبعثت هذه عن ذاك "كانبعاث حواء من آدم في عالم الأجرام" (م. عربى، الفتوحات المكية، د.ن، جـ1، 139). إذ بالتلقيح بين هذين تولدت الطبيعة والهباء، "ثم نزل التوالد في العالم إلى التراب على ترتيب مخصوص" (السابق، جـ1، 140).

إن الاشتغال بهذه الآليات مجتمعة هو الذي يمكننا من موازاة مراتب الوجود الأساسية بحروف اللغة، فهذه المراتب يصل عددها إلى ثمانية وعشرين مرتبة أساسية، توازي كل مرتبة منها حرفا من حروف اللغة الصوامت، أما الصوائت (الحركات أو حروف العلة) فإنها توازي مراتب المستوى الأول من البرزخ (ن. أبو زيد، 2006، 214-215). وهذا الربط بين مراتب الوجود العامة وبين حروف اللغة آت من موازاة تجلي النفس الإلهي، من حيث كونُ حروف اللغة تتشكل نُطقا في النفس الإنساني باعتماد أعضاء النطق على أماكن معينة في جهاز النطق نسميها مخارج الحروف، كذلك مراتب الوجود تتشكل في مستوى العماء، وتظهر التجليات المختلفة والدائمة لحقائق الألوهة (م. عربى، الفتوحات المكية، د.ن، جـ1، 675)، على مستوى فعالية الأسماء المقدسة؛ التي تتوجه إلى أعيان مراتب الوجود التي تتعلق بها المعرفة.

وترتبط كل مرتبة وجودية بمرتبة معرفية يدل عليها حرف من الحروف كما سيتضح ذلك، بعد توضيح علاقة الحروف بالمنازل والعناصر.

1ـ عناصر ومنازل وحروف: يرى ابن عربى أن اسم "الله" الجامع للأسماء كلها، والفاعلَ في الوجود، مكون من أربعة أحرف: ألف، لامٌ، لاَمٌ، هاء، وأسماء الأنبياء: موسى، وعيسى، ومحمد، مكونة كذلك من أربعة أحرف. وهذا التوافق في عدد أحرف الأسماء المذكورة فيه ترميزٌ إلى أن الله تعالى خلق الكون من أربعة عناصر، ورتبها من خفيف إلى كثيف: النار، الهواء، الماء، التراب، وتضبطها حروف (نَهِمْتُ). فالنار نِسبتُها واحد، والهواء نسبته اثنان، والماء نسبته ثلاثة، والتراب نسبته أربعة، وحيث أن الكون من هذه العناصر فإن ترتيبها

تربيعَها هو ستة عشر، وتكعيبها أربعة وستون أي طول وعرض وارتفاع. وعليه؛ فإن الكون كله لا يزيد عن أربعة وستين موقعا، ولذلك بُني علم الرمل على ستة عشر شكلا، كل شكل أربعُ طبقات. فهو يحتوي على أربعة وستين طبقة كحالات الكون وطبقاته، كما بُني علم الموسيقى على أربعة أزمنة حتى وصل إلى أربعة وستين في الزمن الموازية لحالات الكون (ع. الطوخى، 1991، 31-32).

وإذا كانت الأزمنة الموسيقية موازية لحالات الوجود ومراتبه، فإن الحروف كذلك، فقد جاء عددها على عدد المنازل القمرية وهي ثمانية وعشرون. وجعل العلماء المهتمون بالفلك لهذه الحروف أبعادا صُغرى وأبعادا كبرى، وهي الحساب الأبجدي، حيث بُعد الألف واحدٌ، والجيم ثلاثة... وهكذا. وتتفق الأبعاد الصغرى والكبرى للحروف من الألف إلى الياء، ثم بُعد الكاف الكبير بعشرين، وبعده الصغير بإحدى وعشرين.

وأبعاد الحروف ليست أعدادها، فالحروف فيها العناصر الأربعة كما أشرنا إلى ذلك، معلوم أن وجود النار في الماء غير وجود الماء في النار (السابق، 25-26). ولكن هذه العناصر والمنازل لا تشمل حضرات الوجود كلها، وإنما بعضا منها فقط، وذلك لتمايز هذه الحضرات بعضها من بعض. فما هي هذه الحضرات؟ للوجود خمس حضرات[12] وعلى ضوء هذه الحضرات نستطيع أن ندخل إلى دائرة الوجود وموازاة مراتب مستوياتها بمراتب الحروف. فالوجود نشأ حروفا في النفَس الإلهي مرتبة مرتبة (= حرفا حرفا) حتى استوت وتمت مراتبه الأساسية كاستواء حروف اللغة في النفَس الإنساني. وبهذا الاستواء أمكن ظهور الموجودات على أربعة مستويات؛ كل مستوى يتضمن أربعة مراتب:

المستوى الأول: ويسمى بالبرزخ (العماء أو الخيال المطلق)، وهو يقع خارج نطاق المعرفة، لأنه تعبير أونطولوجي معرفي عن الذات في وحدتها المطلقة غيبها الأزلي، مراتبه أربعٌ؛ هي: **مرتبة الألوهة**، وهي مجموع الأسماء الإلهية الفاعلة في العالم، والحضرة الجبروتيةُ الفاصلةُ بيم الحق والخلق. **مرتبة العماء** أو الأعيان الثابتة في العدم، وهي وسيط عالم "الإمكان" الموجودةُ فيه أعيانُ الموجودات بالقوة لا بالفعل. **مرتبة حقيقة الحقائق الكلية المعقولة**، وهي وسيط معرفي كلي. **مرتبة الحقيقة المحمدية أو الإنسان الكامل**، وهي وسيط بين الذات الإلهية والعالم الإنساني. وهذا المستوى بمراتبه الأربع لاَ مُوَازَاةَ بينه وبين الحروف، لأنه يقع فيما وراء الإدراك، بحيث لا يمكن استيعابه إلا من خلال تجلياته في المستويات التالية له.

المستوى الثاني: ويسمى عالم الأمر؛ الذي تحضر فيه آلية التلقيح الحرفى بما تتضمنه من خصائص التوالد. وهو يشمل على أربع مراتب- باعتباره وجودا عقليا لا وجودا عينيا- هي: **مرتبة القلم الأعلى** (العقل الأول) المبدع في العماء،

وتُعتبر بمثابة همزة وصل بين المستوى الأول والمستوى الثاني، ويوازيها على المستوى الأونطلوجي حرف الهمزة، أما الاسم الإلهي المتوجّه إلى إيجادها فهو: البديع (م. عربى، الفتوحات المكية، د.ن، جـ2، 427). **مرتبة اللوح المحفوظ** (النفس الكلية)، ويوازيها على المستوى الأونطلوجي حرف الهاء، وتوجَّه إلى إيجادها الاسم الإلهي:الباعث (السابق، جـ2، ص568). **مرتبة الطبيعة الكلية**، وهي ثمرة الالتقاء بين القلم واللوح، ويوازيها أونطولوجيا حرف العين، وتوجَّه إلى إيجادها الاسم الإلهي: الباطن (نفسه، جـ3، ص420). **مرتبة الجوهر الهبائي**، ويوازيها أونطولوجيا حرف الحاء، وتوجه إلى إيجادها الاسم الإلهي: الآخِر. وتتفرع هذه المرتبة إلى فرعين: فرع (الجسم الكل) الذي يمثل آخر المعقولات وأول الموجودات في المستوى الثالث الذي هو عالم الخلق، ويوازيه أونطولوجيا حرف الغين، وتوجَّه إلى إيجاده الاسم الإلهي:الظاهر (نفسه، جـ2، ص430)، وفرع (الشكل)، ويوازيه أونطولوجيا حرف الخاء، وتوجَّه إلى إيجاده الاسم الإلهي: الحكيم (نفسه، جـ2، ص433). فالجسم الكل هنا يمثل المَجلى الظهوري الأولَ في الجوهر الهبائي الذي يُجسد آخر المراتب المعقولة. والجدول التالي يُبين كل مرتبة من مراتب المستوى الثاني من الوجود، والحرفَ الذي يوازيها، والاسمَ الإلهي الذي يتوجه إلى إيجادها:

الرقم الترتيبي للحرف والمرتبة	الحرف اللغوي	المرتبة التي يوازيها	الاسم الإلهي المتوجه إلى إيجادها
1	الهمزة	القلم الأعلى	البديع
2	الهاء	اللوح المحفوظ	الباعث
3	العين	الطبيعة الكلية	الباطن
4	الحاء	الجوهر الهبائى	الآخر
5	الغين	الجسم الكلى	الظاهر
6	الخاء	الشكل	الحكيم

المستوى الثالث: ويسمى عالم الخلق، وهو يتضمن أربع مراتب؛ هي: **مرتبة العرش:** التي هي أول عالم الوجود الروحي المحيط بجميع الموجودات، ويوازيها أونطولوجيا حرف القاف، وتوجه إلى إيجادها الاسم الإلهي: المحيط. **مرتبة الكرسي**: التي تمثل بداية عالم التعدد في عالم الروحانيات، ويازيها أونطولوجيا حرف الكاف، وتوجه إلى إيجادها الاسم الإلهي:الشكور. **مرتبة فَلَكِ البروج:** التي تمثل الكثرةَ والتعدد، وعلة كل التغيرات التي تحدث في عالم الكون والفساد وعلى المستويين: الروحي والطبيعي، ويوازيها أونطولوجيا حرف الجيم، وتوجه إلى إيجادها الاسم الإلهي: الغني. **مرتبة كوكب المنازل**: ويوازيها أونطولوجيا حرف

الشين الذي يحمل دلالة صوتية خاصة هي التفشي والخروج والانتشار، مما يجعل من دلالته حالة توازي حالة تَحول المُضمر إلى مُعْلَنٍ في الأمر الإلهي، من حيث صلتُه بعالم الكون والفساد، والاسم الإلهي المتوجه إلى إيجادها هو: المُقَدِّرُ.

المستوى الرابع: ويُسمى عالم الشهادة أو عالم الكون والفساد، وهو يتضمن كذلك أربع مراتب؛ هي: **مرتبة الأفلاك السبعة** المتحركة التي تُسبب حركتها التغير والتحول في العالم المشهود. وهذه الأفلاك كلها مقدرة في فلك المنازل، وتوازيها أونطولوجيا- بحسب أسمائها وعددها- الحروف التالية: الباء لـ (زحل، السماء الأولى، كيوان) والاسم الإلهي المتوجه إلى إيجادها هو: الرب. والضاد لـ (المشتري، السماء الثانية)، والاسم الإلهي المتوجه إلى إيجادها هو العليم. واللام لـ(المريخ، السماء الثالثة)، والاسم الإلهي المتوجه إلى إيجادها هو القاهر. والنون لـ (الشمس، السماء الرابعة)، والاسم الإلهي المتوجه إلى إيجادها هو: النور. والراء لـ(الزهرة، السماء الخامسة)، والاسم الإلهي المتوجه إلى إيجادها هو: المصور. والطاء لـ (عطارد، السماء السادسة)، والاسم الإلهي المتوجه إلى إيجادها هو: المُحصي. والدال لـ (القمر، السماء السابعة)، والاسم الإلهي المتوجه إلى إيجادها هو المبين. وهذه المرتبة يليها عالم الكون والاستحالة الفعلي (ن. أبو زيد، 2006، 222). **مرتبة العناصر الطبيعية الأربعة** من نار وهواء وماء وتراب، ولكل منها فلك يوازيه حرف من حروف اللغة، ويتوجه إلى إيجاده اسم إلهي خاص، هكذا: فالتاء توازي أونطولوجيا فلك النار الذي توجه إلى إيجاده الاسم الإلهي: القابض، والزاي يوازي أونطولوجيا فلك الهواء الذي توجه إلى إيجاده الاسم الإلهي: الحي. والسين يوازي أونطولوجيا فلك الماء الذي توجه إلى إيجاده الاسم الإلهي: المُحيي. والصاد يوازي أنطولوجيا فلك التراب الذي توجه إلى إيجاده الاسم الإلهي: المُميتُ. وليس معنى هذا أننا نتحدث عن درجات يعلو بعضها فوق بعض أو يسبقه في الجود، بل معناه توضيح مراتب روحية، إذ العناصر هي الطبائع الأصلية التي تشكلت منها أجسامُ كل الكواكب والأفلاك وأجسام كل الكائنات بنسبٍ مختلفة من حيث الوجود (السابق، 222). **مرتبة الحياة** التي تمثل الموجودات الأصلية من معدن ونبات وحيوان، وتوازيها أونطولوجيا حروف خاصةٌ، وتوجهت إلى إيجادها الاسم الإلهي: العزيز. والنبات يوازيه حرف الظاء، وتوجه إلى إيجاده الاسم الإلهي: الرازق. والحيوان يوازيه حرف الذال، وتوجه إلى إيجاده الاسم الإلهي: المُذِلُّ. **مرتبة الكائن العاقل** التي تمثل الملائكة والجن والبشر، وتوازيها أسماء إلهية خاصة كذلك، وتوجهه إلى إيجادها الاسم الإلهي: القوي. والبشر يوازيه حرف الميم، وتوجه إلى إيجاده الاسم الإلهي: الجامع. **مرتبة المراتب**: وهي المرتبة الأساسية التي ترتبت على أساسها المراتب كلها، ويوازيها أونطولوجيا حرف الواو، وتوجه إلى إيجادها الاسم الإلهي: الرفيع

الدرجات. فهي من هذه الناحية تُعتبر الثامنة والعشرين في مراتب الوجود، ما يوازيها من الحروف والأسماء الإلهية التي توجهت إلى إيجادها.

خاتمه:

إن الموجودات العينية تتكون من تآلف بعض مراتب الوجود، وتتوازى مع حروف اللغة التي توازي مراتب الوجود. ومن هنا تكون الموجودات حروف الله وكلماته التي توازيها حروف اللغة وكلماتها، وتكون بالتالي الموجودات تساوي اللغة، وكذلك الوجود. وإذن، فإن الوجود هو اللغة في عمقها الكينوني، فالكلمات التي تتألف من الحروف بالمعنى الوجودي واللغوي على السواء لا حصر لها، وكذلك الوجود، لأن "الممكنات هي كلمات الله التي لا تنفِد، وبها يظهر سلطانها الذي لا يَبعد، وهي مركبات لأنها أتت للإفادة فصدرت عن تركيب يُعَبَّر عنه باللسان العربي بلفظة "كن" فلا يتكون عنها إلا مركب من روح وصورة، فتلتحم الصور بعضها ببعض لما بينها من المناسبات، (...) والمادة التي ظهرت فيها كلمات الله التي هي العالمُ هي نفس الرحمان، ولهذا عبر عنها بالكلمات" (م. عربى، الفتوحات المكية، د. ت، جـ3، 283).

هكذا تكون مراتب الوجود البسيطة ثمانية وعشرين مرتبة مثل عدد حروف اللغة، أليس في هذا من الأسرار ما يجعل اللغةَ والوجودَ جسدًا روحيا يتألق فيع النبض قصدَ الترقي الروحي بالإنسان!!! فالترقية الروحية ما هي إلا امتلاكُ العقل وتشرُبه لسر هذا الجسد الروحي المسمى بالحرف، وتعبيرٌ عن الضوء المشعشع فيه.... فبالحرف تحقَّقَ الوجود الجسدي والروحى للكون، فهو أسُّ الخلق والتكوين، وهو ألف البدء، منه فاضت العوالمُ صغراها وكُبراها، وهو الدلالة الكُلاَّنية على أن العلاقة بين الله والإنسان، وبينهما وبين العالم ذاتُ منحًى دلالي أشبهَ بعلاقة الحرف بالمعنى.

هوامش الدراسة

(1) يُعرّف أهل اللغة معنى الحرف بعدة معانٍ كما وردت على لسان العرب منها أن: (الحرف من حروف الهجاء وكل كلمة بنيت أداة عارية فى الكلام لتفرقة المعانى تسمى حرفا وإن كان بناؤها بحرفين أو أكثر مثل حتى وهل وبل ولعل).. انظر: الخليل بن أحمد، كتاب العين، تحقيق مهدى المخزومى وإبراهيم السامرائى، مكتبة الهلال، القاهرة، بدون تاريخ نشر، جـ3، ص210-211.. وانظر أيضا: أبو منصور محمد بن أحمد الأزهرى، تهذيب اللغة، تحقيق محمد عوض مرعب، دار إحياء التراث ، بيروت، 2001م، جـ5، ص10.

ويقال الحرف: (حرف كل شيء طرفه، وشفيره، وحده، والحرف واحد حروف التهجى وقوله تعالى (وَمِنَ النَّاسِ مَنْ يَعْبُدُ اللَّهَ عَلَى حَرْفٍ) [سورة الحج، الآية: 11]، ومعنى الحرف فى الآية: أي يعبده فى السراء لا فى الضراء، ويقال: فلان على حرف من أمره ناحية منه إذا رأى شيئا لا يعجبه عدل عنه.. انظر: المعجم الوسيط 167/1.

([2]) علم أسرار الحروف علم يدخل فيه علوم أخرى، ولكن قد يطلق عليه أسماء أخرى هى مرادفة لمعنى أسرار الحروف منها: (علم خواص الحروف، علم الخواص الروحانية من الأوفاق، علم التصيف بالحروف والأسماء، علم الحروف النورانية والظلمانية، علم التصريف بالأسم الأعظم، علم الكسر والبسط).. انظر: حاجى خليفه، كشف الظنون عن أسامى الكتب والفنون، دار الكتب العلمية، بيروت، 1992م، ج1، ص17. ويعرف البعض علم أسرار الحروف بأنه: (علم باحث فى خواص الحروف إفرادا وتركيبا، وموضوعه الحروف الهجائية ومادته الأوفاق والتراكيب وصورته تقسيمها كمًا وكيفًا، وتأليف الأقسام والعزائم، وما ينتج منها، وفاعلية المتصرف، وغايته التصرف على وجه يحصل به المطلوب إيقاعا وانتزاعا ومرتبته بعد الروحانيات والفلك والنجامه).. انظر: المرجع السابق، جـ1، ص650.

وقد ذهب ابن خلدون فى مقدمته إلى تعريف علم الحروف قائلا: (علم أسرار الحروف وهو المسمى لهذا العهد بالسيميا، نقل وضعه من الطلسمان إليه فى اصطلاح أهل التصرف من المتصوفة فاستعمل استعمال العام فى الخاص وحدث هذا العلم بعد الصدر الأول عند ظهور الغلاة منهم وجنوحهم إلى كشف حجاب الحس، وظهور الخوارق على أيديهم، والتصرفات فى عالم العناصر، وزعموا أن الكمال الأسمائى مظاهره أرواح الأفلاك والكواكب، وأن طبائع الحروف وأسرارها سارية فى الأسماء فهى سارية فى الأكوان، وهو من تفاريع علوم السيميا لا يوقف على موضوعه، ولا يحاط بالعدد مسائله تعددت فيه تأليف البونى، وابن عربى، وغيرهما، وحاصله عندهم وثمرته تصرف النفوس الربانية فى عالم الطبيعة بالأسماء الحسنى والكلمات الإلهية الناشئة عن الحروف المحيطة بالأسرار السارية فى الأكوان).. انظر: عبد الرحمن بن خلدون، المقدمة، مؤسسة الرسالة، بيروت، 2005م، ص542. ونحن هنا نتفق مع ابن خلدون بأن أكثر الصوفية هم أكثر من أوغل فى هذا العلم، ولكننا نختلف معه فى مدى توظيف الصوفية لهذا العلم.. حيث يحمل رأي ابن خلدون بين ثناياه رؤية سلبية لتوظيف الصوفية لهذا العلم، ولكننا نرى أن لهذا العلم توظيف ذات أبعاد إيجابيه أيضا لدى الصوفية. صحيح أن بعض الطرق الصوفية قد استخدمت هذا العلم فى بعض الأمور المرتبطة بالتنجيم، لكن بعض الكتابات الصوفية أيضا قد وظفت هذا العلم بشكل إيجابى كما سنرى فى هذا البحث لاحقا.

([3]) العلاقة بين الحروف والأعداد؛ لكون حساب الجُمّل ذا صلة بالأعداد. ويقوم حساب الجمل على: جعل قدر من العدد فى مقابل كل حرف، وإجراء الأسماء والأزمنة والأمكنة على ذلك، ومن الجمع والطرح ونحو ذلك، كما يقوم على استنطاق الحروف أو الكلمات ضمن أعدادها وفق هيئات مخصوصة وقواعد مظبوطة.. انظر: عبد الرحمن

الصنهاجى، أنوار البروق فى أنوار الفروق، تحقيق محمد أحمد سراج وعلى جمعه محمد، مركز الدراسات الفقهية، القاهرة، 2007م، ص19.

(4) اعتمدت المدرسة الفيثاغورسية فى الفلسفة اليونانية القديمة على الحروف، كما نظرت إلى العدد نظرة دينية صوفية اعتبرت أن كل شيء من الوجود هو عدد. انظر: عبد الرحمن بدوى، موسوعة الفلسفة، جـ2، ص228 وما بعدها... ويرجع البعض التأويل الرمزى للأعداد والحروف إلى الأفلاطونية القديمة نسبة إلى أفلاطون، وهذا الرأى لا يمنع أن يكون المذهب الفيثاغورى هو الأصل فى هذه المسألة.. انظر: على سامى النشار، نشأة الفكر الفلسفى فى الإسلام، دار السلام، الإسكندرية، 2008م، جـ1، ص210.

(5) ذكر صاحب كشف الظنون كتابًا للغزالى بعنوان: أسرار الحروف والكلمات، انظر: كشف الظنون، جـ1، ص83.

(6) مثال أخر على ربط هذه الفرقة للعلاقة بين الحروف والأرقام: حيث قالوا أن أصل كلام الله عز وجل 28 حرفًا، وأن منها 14 مفردة هى: الحروف المقطعة فى القرآن الكريم وفيها خس نقط. وحروف (الفاء والدال والنون والصاد والألف) تزيد فى نقطها مفردة ثلاثة أحرف هى: (اللام والنون والفاء) لتكون سبعة عشر حرفًا ويبقى من الجميع أحد عشر. وقام الحروفيون بتطبيق هذه الفكرة على القرآن فقالوا: فى الخمس نقاط أنها تدل على الصلوات أثناء النهار، وتدل السبع عشرة على عدد الركعات فى الحضر، وتدل الحروف الثلاثة الزائدة على أنواع الصلوات الثلاثة (ركعتان، ثلاث ركعات، أربع ركعات) راجع: كامل الشيبي، مرجع سابق، ص189.

(7) الحروف المظهرة هى: الغين التى هى سمة الحق فى الأعيان، الميم التي هي ناظر الحق، الكاف التي هي كاتب الحق، النون التي هي شأن الحق، الحاء التي هي حافظ الحق، الفاء التي هي فاتحة الحق، الألف التي هي سلطان الحق، الذال التي هي شاهد الحق، القاف التي هي داعية الحق، الباء التي هي آية الحق، الهاء التي هي هادي القرآن، الراء التي هي دولة الحق، التاء التي هي مشهود الحق، اللام التي هي حل الحق، الجيم التي هي يقين الحق، السين التي هي سناء الحق وسنا برقه، الزاي التي هي زاد الحق، الدال التي هي علو الحق، الواو التي هي وجه الحق، لام الألف التي هي مثل الحق. لمزيد من التفاصيل انظر: ابن عربى، رسالة المقدار فى نزول الجبار، ضمن رسائل ابن عربى شرح مبتدأ الطوفان، ص248-249.

(8) يعتمد بعض الصوفية على هذه التقسيمة الشهيرة للحروف وهى على أربعة أقسام؛ **القسم الأول**: أحرفه هي: ا،هـ، ط، م، ف، ش، ذ، تهبط عليها أرواح نارية. **القسم الثاني**: أحرفه هي: ب، و، ي، ن، ص، ت، ض، تهبط عليها أرواح يابسة. **القسم الثالث**: أحرفه هي: ج، ز، ك،س، ق، ث، ظ، تهبط عليها أرواح رطبة. **القسم الرابع**: أحرفه هي: د، ح، ل، ع، ر، خ، غ، تهبط عليها أرواح مائية.. لمزيد من التفاصيل انظر: البوينى، الكشف فى عالم الحرف، ص24..

(9) لقد لخص الشيخ الأكبر ابن عربى فى ديوانه الكبير كل حرف من حروف الهجاء الثمانية والعشرين، وكلمة (لام ألف) فى إحدى قصائده، تبدأ صدورها بذلك الحرف،

وتنتهى به أعجازها، مبينا فيها الأسرار الربانية التى أودعها الله فى ذلك الحرف، والرقائق التى يتضمنها. ويبلغ مجموع الأبيات التى كرسها لأسرار الحروف فى الديوان 209 بيتا تستغرق الصفحات من 205 إلى 219. انظر: أحمد حسن بسج، شرح ديوان ابن عربى، دار الكتب العلمية، بيروت، 1996م.

([10]) **الأحرف النورانية:** وهي ثلاثة عشر حرفا؛ هي: ط، ر، ق، س، م، ع، ا، ل، ن، ص، ي، ح، هـ. يتم التصرف بها في الروحانيات، والعقول والأنفس، والخواطر، والأحاسيس، والهواجس، والخيالات، والأفكار، وكل شيء عقلي. و**الأحرف الظلمانية:** وهي ضد النورانية، وتمثلها بقية الحروف، ويتم التصرف بها في الماديات كالأجسام والنباتات والحيوان، كل شيء حسي. وعن هذا التقسيم يقول الشيخ علي ابن سينا: إن المخلوقات انقسمت إلى قسمين: علوي روحاني، وسفلي جسماني. فالعلوي لطيف ومضيء، والسفلي كثيف ومظلم. والعلوي معقول، والسفلي محسوس، فالعلوي مطلوب ومرغوب، والسفلي طالب راغب. ومن هنا كانت الحروف النورانية علوية، والمظلمة سفلية، وكل هذا ليتمكن العالم الإنساني من القبض على الزّمَامَيْنِ ويجمع في يده الأمرين. فالأحرف الظلمانية؛ بما أنها سفلية؛ فإنها تتضمن الطبائع النارية والترابية والمائية والهوائية. **الأحرف السعيدة:** وهي الأحرف المهملة، أي التي ليس عليها نقط، وعددها ثلاثة عشر حرفا. وتنقسم إلى الطبائع الأربع؛ النارية: وأحرفهاهى ا، هـ، ط، م. الهوائية: وفيها حرفان ك، س. الترابية: وهي حرفان و، ص. **الأحرف النحسة:** وهي الأحرف المنقوطة مثنى وثلاث، وعددها خمسة أحرف: ت، ث، ش، ق، ي. ولم تدخل فيها الطبيعة المائية، لأن الأحرف المائية كلها خيرٌ محض. **الأحرف الممتزجة:** وهي الأحرف المنقوطة نقطة واحدة، وعددها عشرة.. لمزيد من التفاصيل راجع: البونى، الكشف فى علم الحروف، ص25-33.

([11]) ابن عربى، ديوان ابن عربى، شرح أحمد حسن بسج، دار الكتب العلمية، بيروت، 1996، ص126.

([12]) **حضرة عالم الناسوت**: وهي مرتبة وجود الأجسام الكثيفة. **حضرة عالم الملكوت**: وهي مرتبة فيض الأنوار القدسية، وتمتد من السماء الأولى إلى السابعة. وتشمل عالم المثال وعالم الروحانية وعالم الأفلاك. **حضرة عالم الجبروت**: وهي مرتبة فيض الأسرار الإلهية، وتمتد من السماء السابعة إلى الكرسي، وتشمل عالم الأرواح المجردة، أي عالم الملائكة. **حضرة عالم اللاهوت:** وهي مرتبة ظهور أسماء الله تعالى وصفاته بأسرارها وفيوضها وتجلياتها. **حضرة الهاهوت:** وهي مرتبة البطون الذاتي أو مرتبة العماء، التي لا مطمع لأحد في إدراكها أو نيلها إلا التعلق بها فقط. لمزيد من التفاصيل انظر: على حرازم، جواهر المعانى، جـ2، ص39.

قائمة المصادر والمراجع

1. أبو منصور محمد بن أحمد الأزهرى (2001)، ***تهذيب اللغة***، تحقيق محمد عوض مرعب، دار إحياء التراث العربى، بيروت.
2. أحمد بن علي البوني (2004)، ***الكشف في عالم الحرف***، مؤسسة النور للمطبوعات، بيروت.
3. بيير لورى (2006)، ***علم الحروف فى الإسلام***، ترجمة دليا الطوخى، الهيئة المصرية العامة للكتاب، القاهرة.
4. حاجى خليفه (1992)، ***كشف الظنون عن أسامى الكتب والفنون***، دار الكتب العلمية، بيروت.
5. الحسين بن منصور الحلاج (1998)، ***حقائق التفسير***، جمع محمود الهندى، مكتبة مدبولى، القاهرة.
6. عبد الرحمن الصنهاجى (2007)، ***أنوار البروق فى أنوار الفروق***، تحقيق محمد أحمد سراج وعلى جمعه محمد، مركز الدراسات الفقهية، القاهرة.
7. عبد الرحمن بن خلدون(2005)، ***المقدمة***، مؤسسة الرسالة، بيروت.
8. عبد الرزاق الكاشانى (1995)، ***لطائف الأعلام فى إشارات أهل الإلهام***، تحقيق سعيد عبد الفتاح، دار الكتب المصرية، القاهرة.
9. عبد الفتاح السيد الطوخي (1991) ***مدهش الألباب في أسرار الحروف وعجائب الحساب***، المكتبة الثقافية، بيروت.
10. عبد القادر الجرجانى (1991)، ***التعريفات***، تحقيق محمد عبد الكريم القاضى، دار الكتاب المصرى، القاهرة.
11. عبد الكريم الجيلى (1992)، ***شرح مشكلات الفتوحات المكية لأبن عربى***، تحقيق يوسف زيدان، دار سعاد الصباح، القاهرة.
12. عبد الكريم القشيري (بدون تاريخ)، ***الرسالة القشيرية***، تحقيق عبد الحليم محمود ومحمود بن الشريف، دار الكتب الحديثة، القاهرة.
13. عصام محفوظ (2003)، ***مع الشيخ الأكبر ابن عربي***، دار الفارابى، بيروت.
14. علي حرازم بن العربي الفاسي (1963)، ***جواهر المعاني وبلوغ الأماني في فيض سيدي أبي العباس التجاني***، مطبعة مصطفى الحلبي، مصر.
15. على سامى النشار (2008)، ***نشأة الفكر الفلسفى فى الإسلام***، دار السلام، الإسكندرية، مصر.
16. محمود عبد الرؤوف القاسم (1413هـ)، ***الكشف عن حقيقة الصوفية***، المكتبة الإسلامية، عمان، الأردن.
17. محيى الدين بن عربى (1990)، ***معجم اصطلاحات الصوفية***، تحقيق بسام عبد الوهاب الجابى، نشر دار الإمام مسلم، بيروت.
18. ..... (1996)، ***ديوان ابن عربي***، شرح أحمد حسن بسج، دار الكتب العلمية، بيروت.
19. ..... (1998)، ***رسالة في شرح مبتدأ الطوفان***، ضمن (***رسائل ابن عربي شرح مبتدأ الطوفان ورسائل أخرى***)، دراسة وتحقيق قاسم محمد عباس وحسين عجيل، منشورات المجمع الثقافي، أبو ظبي، الإمارات العربية المتحدة.

20. ..... (2002)، ***رسالة المقدار في نزول الجبار***، ضمن (***رسائل ابن عربي شرح مبتدأ الطوفان***)، دراسة وتحقيق قاسم محمد عباس وحسين عجيل، منشورات المجمع الثقافي، أبو ظبي، الإمارات العربية المتحدة.
21. ..... (2002)، ***شجرة الكون***، تحقيق عبد الرحيم ماردیني، دار آية، بيروت.
22. ..... (2002)، **كتاب الألف**، تحقيق عبد الرحيم ماردیني، دار آية، بيروت.
23. ..... (2002)، ***كتب الميم والواو والنون***، تحقيق، عبد الرحيم ماردیني، دار آية، بيروت.
24. ..... (بدون تاريخ)، ***الفتوحات المكية***، دار صادر، بيروت.
25. مصطفى كامل الشيبي (1982)، ***الصلة بين التصوف والتشيع: الفكر الشيعي والنزعات الصوفية***، دار الأندلس، بيروت.
26. نصر حامد أبو زيد (2006)، ***هكذا تكلم ابن عربي***، المركز الثقافي العربي، الدار البيضاء.